أمانة الكلمة عند المبدع المسلم*

د. صالح أبو عرّاد - السعودية

عضو هيئة التدريس بكلية المعلمين في أبها

إهداء:

- إلى الذين يؤمنون بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.
- إلى من يؤمنون برسالة الإنسان المسلم المبدع في كل مجال من مجالات الحياة، وكل فن من فنون الإبداع، وكل ميدان من ميادين العلم والمعرفة.
- إلى من يحكمون على مجريات الأمور بعقولهم الواعية، ويحاربون الهوى في نفوسهم الضعيفة.
- إلى من قالوا خيراً فغنموا، أو سكتوا عن شر فسلموا.
- إلى من يؤمنون ويصدّقون بقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.

أقول: الحمد لله القائل: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة قّ). والصلاة والسلام على نبينا ومعلمنا وقائدنا وقدوتنا محمد بن عبدالله الذي صحّ عنه أنه قال: " وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم " (رواه الترمذي، الحديث رقم ٢٦١٦، ص ٥٩٠). أما بعد:

فأقدّم - مستعيناً بالله وحده - هذه الكلمات الموجزات حول أمانة الكلمة عند المبدع المسلم قائلاً:

من العجيب أن نكون محاسبين عندما نسكت، ولكن الأعجب من ذلك أن نكون محاسبين عندما نتكلم؛ وما ذلك إلا لأن " الكلمة بما أودع الله فيها من الأسرار والتأثير، وبما هيأ الله لها من القبول في نفوس البشر، ذاتُ فعل عظيم وخطير، قد يبلغ حد السحر، فتسحر أعين الناس، وتموّه الواقع، ولاسيما حين تتجلى في معارض التأثير والخصومة؛ إذ تصور الحق باطلاً والباطل حقاً، أو تجعل مطية يبلغ بها الدعيُّ، حين يعجز عن ركوبها العييّ " (١: ١١).

من هنا فإن تعاليم وهدي ديننا الإسلامي الحنيف، وتعاليم وتوجيهات تربيته الإسلامية توجب علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسب، وأن نُراقب الله تعالى

في كل قول أو عمل أو نية، وأن يكون هدينا في ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ (سورة الأنعام).

ولهذا فقد حث ديننا الإسلامي الحنيف، ودعت تربيته الإسلامية السامية إلى أن يلتزم الإنسان المُسلم في قوله - على وجه الخصوص - بالهدي الرشيد والقول السديد الذي قال فيه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ (سورة الأحزاب). وأن يحذر من سيّئ القول وفاحش الكلام تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ... ﴿١٤٨﴾ (سورة النساء).

وما ذلك إلا لعظيم شأن الكلمة التي يقول فيها أحد الكُتّاب: " ستظل الكلمة شمساً تضيء أو ناراً تُحرق.. وهي مصدر هداية أو غواية، وأداة هدم أو بناء، وينبوع سعادة أو شقاء، ونذير حرب أو بشير سلام، وريح إيمان أو وسوسة شيطان، ودعوة فضيلة أو إغراءٌ برذيلة " (٦: ٧٢).

وإذا كانت الكلمة المنطوقة أو المكتوبة تمثل أهم أدوات الإبداع، فإن مهمة المبدع أياً كان نمط إبداعه أو مجاله أو ميدانه، أن يجعل من محاولاته الإبداعية وبيانه اللفظي أو الكتابي سحراً حلالاً يدعو إلى الفضيلة، ويُحذّر من الرذيلة، ولاسيما أن " كل أداء (أو عمل أدبي) تقبله الأذواق السليمة، ولا ينعكس أثره السيئ على الأخلاق، ولا يُثير الغرائز الحيوانية؛ يُعدُّ من الأدب المقبول، وإن لم يكن في خدمة الدين المُباشرة والمُنقطعة " (٢: ١٧).

وما ذلك إلا لأن أمانة الكلمة تفرض على المبدع المسلم أن يكون إبداعه نظيفاً طاهراً زكياً، لأنه ينطلق من نفس سوية زكية، ويُعبّر عن مشاعر حية فياضة زاخرة بكل معاني الحب الصادق، ويلتقي مع عناصر الفطرة السليمة السوية التي قال فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿٣٠﴾ (سورة الروم).

من هنا فإن على المبدع في أي فنٍ أدبي أن يحمل هم تبليغ الآخرين بالحق، مع الاحتفاظ بكل مقومات إبداعه الإيجابية الكفيلة بتقويم السلوك الخاطئ، ومُعالجة الأخطاء المُشاهدة؛ فإن لم يكن ذلك ممكناً فلا أقل من أن يحذر الإساءة إلى المُتلقي الذي أرعاه سمعه، وبخاصة أننا مُحاسبون عن كل ما نقوله أو نتلفظ به. وفي هذا الشأن يقول الدكتور / سعد أبو الرضا: " إن الأدب بلاغٌ مثل الرسالة يصدع بها الرسول، فيجب أداء البلاغ بطريقة لا تتجاوز عقيدةً ولا تُغفل سلوكاً إسلامياً" (نقلاً عن ٣: ٣٣).

وإذا كانت الكلمة كما يقول أحد الباحثين " أمانةٌ قبل أن تكون بياناً، ولذلك كانت جهاداً كما كانت جمالاً " (١: ١١)؛ فقد علّمنا معلم الناس الخير من خلال الكلمة أن نحرص من منطلق الإيمان على المنطق السديد والقول الرشيد؛ فإن لم يكن ذلك كذلك، فلا أقل من الصمت مصداقاً لما صحّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: " .. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل

خيراً أو ليصمت " (رواه البخاري، الحديث رقم ٦١٦٣، ص ١٠٦٩).

وهنا يبرز أثر التربية الإسلامية في هذا الشأن حيث إن النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - حثنا في هديه التربوي العظيم على تجنب السيئ من القول، فإن لم يكن ذلك مُمكناً؛ فلا أقل من الستر وتجنب المُجاهرة بالمعاصي؛ وهو ما يؤكده الحديث الصحيح عن سالم بن عبد الله قال: سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

■ إن على المبدع في أي فن أدبي أن يحمل هم تبليغ الآخرين بالحق، مع الاحتفاظ بكل مقومات إبداعه الإيجابية.

" كل أُمتي معافىً إلا المُجاهرين " (رواه البخاري، الحديث رقم ٦٠٦٩، ص ١٠٥٩).

والمعنى أن الدين الإسلامي وتربيته الإسلامية تُحمّل المبدع المسلم شاعراً كان أو قاصاً أو كاتباً أو باحثاً أو مُترجماً أو ناقداً أو دارساً أو غير ذلك " مسؤولية الكلمة التي يكتبها أو ينطقها، لما لها من أثر في نفوس وتوجهات المُتلقين " (٥: ٧٥)؛ فلا كفر ولا فسوق ولا كذب ولا اختلاق، ولا تبذُل ولا انحلال، ولا إسفاف ولا مجون، ولا فضائح ولا شذوذ، ولا انشغال بما لا فائدة منه ولا نفع فيه؛ لأن أمانة الكلمة تفرض على المبدع المسلم أن " يُنزّه قلمه ولسانه عن أن يخرج على الناس بعمل أدبي ليس من ورائه غايةٌ جادةٌ أو هدفٌ مُثمر؛ لأنه يحرص على ألاّ يضيع جهده وجُهد قارئيه عبثاً دون فائدة. لذلك فهو لا يكتب إلا بعد أن يسأل نفسه عدة أسئلة:

لماذا أكتب؟ وماذا أكتب؟ وكيف أكتب؟ ولمن أكتب؟ " (٥: ٧٧).

وفي هذا المعنى يقول الشاعر العربي المُسلم الذي - لا شك أنه - استشعر أمانة ومسؤولية الكلمة:

وما من كاتب إلا سيفنى
ويُبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء
يسُرك في القيامة أن تراه

إن أمانة الكلمة عند المُبدع المسلم تفرض عليه أن يعتز أولاً بهويته المُسلمة المُتميزة في نظرتها للكون وللإنسان وللحياة، وأن يحذر ثانياً - كل الحذر - من الانجراف المقصود أو غير المقصود مع تلك التيارات والمذاهب الفكرية الوافدة من الشرق أو الغرب، البعيدة كل البعد عن مقومات الإبداع الأصيل الجميل الجليل الذي يسمو بالإنسان فكراً وروحاً وسلوكاً.

وكم هو مؤسفٌ ومؤلمٌ أن يتخلى بعض المبدعين المسلمين عن هويتهم الإسلامية، ومبادئهم الكريمة، وأخلاقهم الفاضلة انسياقاً وراء هوى النفوس الأمّارة بالسوء، أو انجرافاً مع بريق التيارات المُنحرفة، أو انبهاراً ساذجاً بما يُسمى (النظريات الفنية، أو المذاهب الإبداعية، أو المدارس المعاصرة) التي انخدع بها البعض من أبناء الإسلام في عصرنا؛ فكانت النتيجة المؤلمة مُتمثلةً في " صدور بعض أدبائنا عن نظرات غريبة، بعيدة عن الأخلاق والعفة في علاقة الرجل بالمرأة، وتبنيهم نظرات الكشف والعُري، وتضخيم جانب الجنس على حساب العواطف الأخرى، مُتابعين بعض فلاسفة أوروبا وشعراء الجنس فيها، مخالفين في ذلك قيمنا وأعرافنا وطبيعة أمتنا " (٤: ٦٦).

إن أمانة الكلمة عند المبدع المسلم تعني الفهم الحقيقي لطبيعة تلك الكلمة؛ فالكلمة الطيبة تختلف - بلا شك - في طبيعتها عن الكلمة الخبيثة؛ وإذا كان الله - جل في عُلاه - قد حسم ذلك الأمر في كتابه العزيز

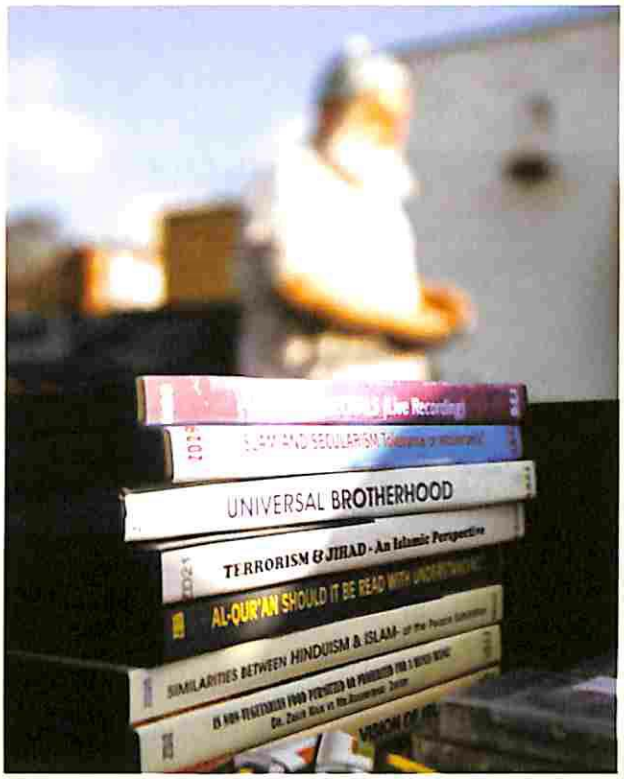

بقوله تعالى في بيان طبيعة الكلمة الطيبة: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ (سورة إبراهيم)، وقوله تعالى في بيان طبيعة الكلمة الخبيثة: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ (سورة إبراهيم)؛ فإنه - جل جلاله - يُبيّن الغاية من ذلك بقوله سبحانه: ﴿ ... وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ (سورة إبراهيم).

وهنا يحضرني قولٌ جميلٌ، ومُبدعٌ، ومُنصفٌ في هذا المعنى لأحد الكُتّاب جاء فيه قوله:

" هذا الفهم لطبيعة الكلمة وقيمتها، لا يعني الحجر على التعبير، أو التضييق على أرباب البيان، فالدين متينٌ لا يضيقُ بحاجات الإنسان الفطرية، وميله الطبيعي إلى اللهو البريء.. والدين كما أن فيه (العزائم) فيه (الرُخص). ومساحات التعبير مُشرعةٌ وواسعةٌ كما هو المُباح الفقهي بالنسبة للمُحرم الفقهي " (١: ١١).

وختامًا أقول: أما و قد علمنا أن من الخطأ السكوت عندما ينبغي الكلام، وأنه لا ينبغي أن نتكلم حينما يكون الصمت أنفع، فإن النفوس المؤمنة بالله تعالى، المتشبعة بهدي القرآن الكريم والسنة المطهرة، والألسن الصادقة المُبدعة التي تخشى الله تعالى وتتقيه، تحيا بين هذا وذاك حياةً عمليةً شاملةً، وتتمثل أمانة الكلمة في كل شأنٍ من شؤون هذه الحياة، وكل جزئية من جزئياتها؛ ولاسيما في (أزمنة الفتنة) التي نحتاج فيها أن نُبدع في معرفة متى يكون الكلام، ومتى يكون الإمساك عنه، وأن ندير الدفة في شتى فنون الإبداع بمهارة وحكمة.. فهل لنا أن نفعل ذلك؟؟!!

إن أمانة الكلمة - أيها الأحباب - مسؤوليتنا جميعاً، وهي تفرض علينا أن نستشعر بحق عظم هذه الأمانة التي تستوجب أن يتواءم سلوك المثقف والمُبدع المُسلم وواقعه التربوي العملي، مع الفكر والثقافة التي يدعو إليها ويؤمن بها في قوله وعمله وفكره.

وختاماً / أسأل الله العلي القدير أن يوفقني وإياكم لجميل القول، وصالح العمل، وأن يكتب لنا التوفيق والسدّاد، والهداية والرشاد، والحمد لله رب العباد ■

الهوامش:

● صحيفة الجزيرة - الرياض - ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ الموافق ٣٠ يونيو ٢٠٠٧م، العدد ١٢٦٩٨.

١- أحمد آل مريع. (١٤٢٥هـ). المُباح اللفظي.. المُباح الفقهي. المجلة الثقافية. العدد (٥٩). السنة (٢). صحيفة الجزيرة. الرياض: مؤسسة الجزيرة الصحفية. الإثنين.٢٨ ربيع الأول ١٤٢٥هـ.

٢- حسن بن فهد الهويمل. (١٤٢٦هـ). النص الهادف تربيةً وتهذيب. صحيفة الجزيرة. العدد (١١٩٥٤). الثلاثاء ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ الموافق ٢١ يونيو ٢٠٠٥م.

٣- محمد أحمد حمدون. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م). نحو نظرية للأدب الإسلامي. ضمن إصدارات المنهل رقم (٧). جدة.

٤- محمد عادل الهاشمي. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). في الأدب الإسلامي تجارب.. ومواقف. دمشق: دار القلم.

٥- محمود شاكر سعيد. (١٤١٣هـ). في الأدب الإسلامي. الرياض: دار المعراج الدولية للنشر.

٦- نجيب الكيلاني. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). آفاق الأدب الإسلامي. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة.